

دور الرسول - صلى الله عليه وسلم - في التوجيه اللغوي

د. فايز المحاسنة*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٨/٣/١٩

تاريخ القبول: ٢٠٠٨/٩/٣

ملخص

يأتي هذا البحث، في إطار الدراسات اللغوية الاجتماعية؛ (علم اللغة الاجتماعي)، التي ترى أن الظاهرة اللغوية يمكن أن تؤثر في سيرها، وذلك حينما يتهيأ لها أناس موهوبون ذوو كفاية في سياسة الخلق وتوجيه أمورهم، وهذا ما عرفناه في شخصية النبي العربي الكريم محمد ﷺ، فقد استطاع أن يستثمر عطاءات العربية، التي تمنح المخطط اللغوي اختيارات شتى، فاجتمع له ﷺ مع نبوته نباهة وموهبة وجهتا العرب توجيهاً مقصوداً، يوافق الرؤية التي جاء بها التنزيل الحكيم.

عمل الرسول ﷺ على توجيه (ترتيب أوضاع اللغة): تقريراً، أو هجراً، أو استبدالاً، أو استحداثاً، وقد كانت سلطته في ذلك نفوذه الأدبي والأخلاقي؛ فكان توجيهه اللغوي ملزماً (أدبياً) مثلما كان توجيهه السلوكي ملزماً كذلك.

استمد رسول الله (ص) شرعيته في هذا الترتيب من مكانته بين أصحابه، ورغبتهم في قبول توجيهه، فاعتمد هذا التوجيه على عوامل نفسية واجتماعية وثقافية، فرضتها طبيعة الدعوة الإسلامية، وقد كان هذا التغيير منهجياً وشاملاً، فهو يعني من بعض الوجوه تغيير مدلول المفردات بما يناسب طبيعة الدعوة، ويعني من وجه آخر تقرير بعض أوضاع اللغة، كما هو في معهود خطابهم، وسنن استعمالهم، ويعني من وجه ثالث هجراً تاماً لبعض الألفاظ، التي لا تتسق وتلك الرؤية التي جاء بها الإسلام، وتعني من وجه رابع استحداثاً لغوياً جديداً، غير مألوف في معهود لغتهم، بل جاء عنصراً لغوياً أساسياً في خطابه عليه السلام. وتعني أخيراً، استبداله عنصراً أو عناصر، بغيرها، إما على سبيل التناول أو التثنية أو الأدب.

Abstract

The Role of the Prophet (Peace Be Upon Him) in Directing Language Change

This study is in the field of Sociolinguistics, which believes that it is possible to direct the linguistic phenomenon especially when qualified individuals lead the people and direct their behavior. Prophet Mohammad (peace be upon him) was known of such qualities, and he could invest the various options that Arabic offered. So, together with his being the prophet, he had the intelligence and talent to direct people in some intended directions consistent with the visions revealed to him.

The prophet (peace be upon him) directed some linguistic rearrangements either by consent, renunciation, alteration, or creation. He managed to do this depending on his literary and ethical authority. Hence his linguistic initiations were as compelling as his ethical/ behavior directions.

The prophet gained this authority from the position he enjoyed among his companions, and the companions' willingness to accept his lead. This was the result of psychological, social, and cultural factors imposed by the nature of Islam. The linguistic change was systematic and comprehensive. It meant in some cases changing the meanings of some words to suit the nature of Islam. In other cases, it meant accepting some linguistic items as they were commonly used in the prevalent speech patterns. In a third case, it meant complete renunciation of some items which were not coherent with the visions promoted by Islam. In a fourth case, this change meant the creation of new unknown or uncommon linguistic trends. Finally, it involved alteration of the meanings of some items either in optimism, euphemism, or out of politeness.

* قسم اللغة العربية، جامعة مؤتة.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة

يَعُدُّ اللغويُّ الدنماركي يسيرسن (Otto. Jespersen)، ١٩١٤، اللسانيَّات النظرية وسيلةً صالحةً، والتخطيط غاية، *the opinion that theoretical linguistics is the means and (LP) the end*. وهو في ذلك يتبنَّى شعار أوجست كنت (Auguste Conte)، "أعرف من أجل أن تستبصر، واستبصر من أجل أن تتنبأ"، وبذلك يتبنَّى المرء حقيقة الأمر، بمنهج علميٍّ يعيدُ على ضوئه بناء الحقيقة^(١).

ولذلك، فإنَّ (كوردر) يفترض أن تكون اللغويَّات التطبيقية لغويةً — بحيث تُوفِّر مجموعةً متزايدةً من المعارف العلمية حول اللغة — بمعنى أن المرء لا يستطيع استخدام ما لا يملكه^(٢).

لقد طالب اللغويُّ الفذُّ (Joshua Whatmough)، بضرورة تعديل اللغة لتلائم الزَّمنَ لحاضر، Language must be adjusted to the present age^(٣).

إنَّ التخطيط اللغويَّ (Language planning) تدبير يتناول أوضاع اللغة، فهو يشير إلى دور الجهود المقصودة التي تمثل دور الإرادة الإنسانية في تطوير اللغة وتوجيهها^(٤). فهو عمليةٌ منهجيةٌ في تنظيم اللغات القائمة وإصلاحها. وهو في الأساس يتوجَّه إلى حلِّ مشكلة لغوية قائمة، يستقصي البدائل الممكنة لحلِّها، ثمَّ يختار أحد هذه البدائل اختياراً مقصوداً عن وعي وعلى بيئة^(٥). وينطوي هذا المصطلح في الغالب على سياسة لغوية حكومية^(٦).

أمَّا نظرية التخطيط اللغويَّ (T.L.P Theory of language planning)، فهي علم تطبيقيٌّ؛ TLP is an applied science أي إنَّ نتائجها يجري تطبيقها على أغراض واقعية، Its results are applicable to practical ends^(٧). وهي كذلك علم معياريٌّ (A normative science)، في مقابل العلم الوصفيِّ، أو الواقعي (Descriptive or factual science) أي إنها تتناول القيم^(٨). ولما كانت نظرية التخطيط اللغويَّ، علماً معيارياً؛ فإنَّ هذا يعني أن المرء يجب ألاَّ يقنع بالوضعية الوصفية، وإنما تكمن مهمتها في أن تقيِّم الحقائق، وأن تقدِّم المعايير لتحسينها بالاتفاق على مثال أعلى^(٩).

يفترض العلماء المتمرِّسون قاعدة معرفية، صارت من أدبيَّات العلوم الإنسانية، وقد أطلقوا عليها "المعرفة النموذجية"، ففي ميدان اللغة، صار معروفاً "أنَّ من طبيعة اللغة التغيُّر"^(١٠). غير أنَّ هذا التغيُّر قد يكون طبيعياً (تلقائياً)، وقد يتطلب تدبيراً وجهداً مقصودين. وقد فصلَّ موشي ناهر (Moshe Nahir)، تطبيق التخطيط اللغوي المقصود، فيما يأتي:

(١) Joshua A. Fishman: *Advances in Language Planning*, New York: Yeshiva University, 1974, p. 54.

(٢) مدخل إلى اللغويَّات التطبيقية، ترجمة جمال صبري، الرباط: اللسان العربي، مج ١، ج ١، ١٩٧٦م، ص ٦٤-٧٦.

(٣) Ibid p. 55

(٤) الموسى، نهاد: قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، عمان: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٠.

(٦) Joshua, A., p. 59

(٧) Ibid p. 5

(٨) Ibid p. 59

(٩) Ibid.p. 5

(١٠) فاسولد، رالف: علم اللغة الاجتماعي للمجتمع: ترجمة إبراهيم بن صالح بن محمد الفلاحي، الرياض: النشر العلمي والمطابع، ٢٠٠٠م، ص ٤.

أولاً: التنقية اللغوية: (Language Purification)

وتهدف إلى تنقية اللغة من الغرائب والشوائب والدخيل، وغرضها من ذلك المحافظة على الهوية، ويتحقق ذلك بتأليف المعاجم وتوليد المصطلح مراعاة للسلامة اللغوية^(١).

ويمثل الجهود المقصودة في العربية في هذا الشأن (السلامة اللغوية) تأليف المعاجم، التي اعتنت باللفظ العربي الفصيح المستعمل، نحو: العين، والجمهرة، والصحاح... إلخ، وكتب لحن العامة، التي هدفت إلى التصحيح اللغوي، وفق المعيارية التي أسس لها نحاة البصرة، ولم تخل بيئة لغوية من هذه الرسائل، فهي ليست رسائل معنية بالعامية الدارجة في مفرداتها، بل إن غرض تلك الدراسات الأساسي، هو الحفاظ على نقاء العربية الفصحى.

ثانياً: إحياء اللغات الميئة أو المهجورة: (Language Revival)

تأتي تجربة اللغة العبرية، شاهداً صادقاً على هذا الجانب، فقد عدها علماء التخطيط اللغوي تجربة فريدة، بعثت العبرية في وقت قصير، لا يزيد على مئة سنة، فأصبحت لغة الحياة، وسيلة الاتصال داخل الدولة الحديثة، ووافية بالمراد لكل الأفراد من كل الجنسيات، ولجميع الأغراض سواء كانت اجتماعية أو تقنية في مجتمع متقدم^(٢).

لقد كانت جهود اليعازر بن يهودا - وهي جهود رجل موهوب آمن بهذه الفكرة (بعث اللغة العبرية وجعلها لغة حياة)، وأخلص لها، وعمل من أجلها - نواة حقيقية لبعثها، بعد أن طال عليها الزمن، وأصبحت منسية، فأخذ على عاتقه (على الرغم من معارضة السياسيين والمتدينين له؛ لأنهم رأوا في إحيائها تدنيساً لها بتحويلها من لغة للكتاب المقدس، إلى لغة للشؤون الدنيوية) مسؤولية بعثها، فاتبع شتى السبل في سبيل ذلك، إذ أدخل العبرية إلى البيوت، ونشر صحيفة عبرية، وأدخلها إلى المدارس، وأنشأ نواة لأكاديمية لغوية تعنى بوضع المصطلحات، وألف المعاجم التي تعين على قراءة العبرية وتيسيرها.

كان (بن يهودا) يرمي من وراء هذه الإجراءات اللغوية المقصودة، إلى جعل العبرية لغة حياة؛ تصلح للتخاطب والتواصل، وتصلح كذلك في تدريس المواضيع المدرسية المختلفة^(٣).

ثالثاً: الإصلاح اللغوي: (Language Reform)

تنبئ الدول سياسة لغوية (تخطيطاً لغوياً)، يهدف إلى إيجاد ألفبائيات جديدة، أو إصلاح ألفبائيات موجودة؛ فمثال الأول تغيير الحرف العربي في اللغة التركية سنة ١٩٢٧م^(٤). كان لأتاتورك السيطرة الكاملة على الحكومة التركية، كما أنه كان يرغب كثيراً في أن يتخلص من الكلمات المقترضة من اللغات العربية والفارسية، وأن يزيلها من اللغة التركية، ولكنه واجه معارضة شديدة فرضت عليه أن يحصر أهدافه في تخطيط المفردات^(٥). غير أنني لا أتفق مع العبد الحق في هذا المظهر من التخطيط اللغوي فيما ذهب إليه حيث عده من باب الإصلاح اللغوي^(٦)؛ فهو ملحق بالـ "العنف اللغوي" الذي يكون بممارسة "سلطة ما" فعل الإقصاء الثقافي ضد فئة أو أقلية معينة، ويتجلى عند الاختلاف اللغوي في صورة "عنف" يمارس ضد لغة الاثنية أو الفئة المغلوبة. وقد يظهر في صورة سياسة مخططة

(١) عبد الحق، فوز: مربيّات التخطيط اللغوي: عرض ونقد، عمان: مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٥١، ١٩٩٦م، ص ١٠٨.

(٢) محمود أمين العالم: لغتنا العربية في معركة الحضارة؛ قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة: (د.م)، ١٩٩٧م، ص ٦٥، ٦٦.

(٣) إبراهيم، محمد حسن: اللغة العبرية في التعليم، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص ٤، وانظر: فاسولد، رالف: علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، مصدر سابق، ص ٥٠٧ و ٥٠٩.

(٤) عبد الحق، فوز: مربيّات التخطيط اللغوي: عرض ونقد، ص ١٠٩.

(٥) فاسولد، رالف: علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص ٤٣٣.

(٦) عبد الحق، فوز: مربيّات التخطيط اللغوي: عرض ونقد، ص ١٠٩.

ترسخ رؤية السلطة الحاكمة. وأحسب أنه من الخطأ أن يسمى "تغيير الحرف العربي في اللغة التركية" على يد أتاتورك إصلاحاً لغوياً، ولكنه في حقيقته شكل من أشكال ممارسة العنف اللغوي لترسيخ السياسة التي صاحبت إسقاط الخلافة. ونظير ذلك ما فعلته سلطة السوفييت في "ترويس الحرف" وتحويل الألفبائيات التي كانت تكتب بها لغات الشعوب الإسلامية التي خضعت لسيطرتها. ومثال الثاني، الإصلاحات التي أجريت على الحرف العربي، حيث بدأت بتوحيد النص القرآني، فكان لحظة حاسمة في تطوير تقعيد الكتابة العربية، ثم تبع ذلك قرارات تخص نظام الكتابة لجعله أكثر وضوحاً وسهولة، من ذلك: قرار نقط الإعجام؛ لتمييز صور الفونيمات المتشابهة رسماً، وثاني القرارات، قرار نقط المصاحف بالنحو (نقط الإعراب)، حيث كانت العربية شأن اللغات السامية، لا تسجل أصوات اللين القصيرة (الحركات القصيرة)، فاستعمل أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) النقط ذا اللون الأحمر، ثم طوره الخليل (ت ١٧٥هـ)، فوضع مكان النقط الملون أشكالاً خاصة بأصوات اللين القصيرة^(١).

رابعاً: التقييس اللغوي: (Language Standardization)

يُطلق مصطلح التقييس اللغوي (التوحيد المعياري اللغوي) على الجانب الأول من التنمية اللغوية^(٢).

خامساً: تحديث المفردات وتطويرها: (Lexical Modernization)

يدخل تحديث المفردات وتطويرها، تحت حقيقة لغوية، أصبحت ثابتة في أدبيات العُرف اللغوي، وهي أن اللغة نظام رمزي اجتماعي، وهي كذلك أداة تتأثر بحركة المجتمع تحديثاً وتطويراً. يذكر هوترلر (Joyce O. Hertzler)، وظائف اللغة، في كتابه، علم اجتماع اللغة (A Sociology of Language)، فيقول^(٣): إنها أداة لتعيين الهوية، وللتصنيف، والإدراك، والتفكير، والعملية الإبداعية، والثقافة، والتذكر، ونقل المعرفة عبر المكان والزمان، واستيعاب المجرد والغبيي.

فلما كانت اللغة بهذه الموصفات، كان تحديث المفردات وتطويرها، أمراً ثابتاً، سواء اتخذ صورة التغيير غير المقصود، الذي تستدعيه هذه الوظائف، بعفوية وتلقائية، أم صورة السياسة اللغوية، التي تخضع لتدابير لغوية مقصودة. ذلك أن مكونات اللغة من تراكيب وألفاظ ومورفيمات، هي غير متكافئة الفعالية في كل النواحي، وهذا يجعل هذه العناصر موضع تقييم وتغيير وتصحيح، وتنظيم وتطوير^(٤)؛ فيحلّ لفظ مكان لفظ، ويحمل لفظ معنى جديداً، فيتجاوز المعنيان معاً في المادة المعجمية، غير أن الاستعمال قضاء ناقد في المعنى الجديد من غير أن ينفي المعنى السابق، وتنشأ تراكيب وعبارات جديدة، لا يمكن أن توصف بأنها الطريق إلى فساد اللغة، وهنا تأتي مهمة التخطيط اللغوي العلمي والمنظم، الذي لا يفرض المعايير، بل يحاول الإشارة إلى التعابير، وإثبات أنها هي المفضلة.

(١) فرستينغ، كيس: اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٧٨، وانظر: عمر، أحمد مختار: أزمة اللغة العربية المعاصرة والحاجة إلى حلول غير تقليدية، (سلسلة كتب وقضايا فكرية)، القاهرة: الكتاب السابع والثامن عشر، مايو، ١٩٩٧م، ص ٧٤.

(٢) يُقصد به مفهوم التنمية اللغوية (Language development): "أنها عملية واعية هادفة إلى إحداث تغييرات محدّدة تختلف عن مفهوم التغيير اللغوي Language change، الذي يعني الرصد اليه أهداف للتغييرات اللغوية في لغة واحدة، أو في عدة لغات، أو في اللغة الإنسانية بصفة عامة. انظر: حجازي، محمود فهمي: اللغة العربية في العصر الحديث: قضايا ومشكلات، الناشر: دار قباء، ١٩٩٨م، ص ١١٤، ١١٧، ١٢٨، ١٤٠، ١٤٣.

Joshua, A p. 49(٣)

Ibid p. 15 (٤)

ولا يقف التحديث اللغوي^(١)، عند حدوث تحديث المفردات وتطويرها، بل إنه يتجاوز ذلك ليضع اللغة الهدف جنباً إلى جنب اللغات الرافقية من جهة الاستعمال والتواصل^(٢).

تأثيره في اللغة:

أولاً: ما أحدثه من التراكم في لغة العرب.

جرت ألفاظ النبوة على هدي الوحي، وإن لم تكن منه، فجاءت محكمة الفصول^(٣)، "فلا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل... فخرج كلامه: 'وليس فوقه مقدار إنساني من البلاغة والتسديد، وبراعة القصد، والمجيء في كل ذلك من وراء الغاية'.

فقد اقتضت ألفاظاً لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعد من حسنات البيان، حيث لم يتفق لأحد مثلاً، في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها^(٤)... حتى صارت مثلاً، وأصبحت ميراثاً خالداً في البيان العربي، كقوله ﷺ: "مات حتف أنفه"، فقد روي عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال^(٥): "ما سمعت كلمة عربية من العرب - يريد التركيب البياني- إلا سمعتها من رسول الله ﷺ، وسمعت يقول: "مات حتف أنفه"، وما سمعتها من عربي قبله. ومثل ذلك، قوله في الحرب: "الآن حمي الوطيس"، وقوله: "بُعِثت في نفس الساعة" إلى كثير من ذلك^(٦).

إن هذا النفس النبوي اللغوي، كان توفيقاً من الله في قوم ابتعثه الله فيهم، يقادون من أسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة^(٧)، "فليس إلا أن يكون ما خص به النبي ﷺ من ذلك قد كان توفيقاً وإلهاماً من الله، أو ما هذا سبيله".

إن مثل هذا البيان، لا يتعاطاه إلا أصحاب الحس الرفيف، والموهبة القوية والتأمل النافذ، فكيف إذا غشى ذلك جلال النبوة، وسمو الوحي، حتى قال الجاحظ في صفته^(٨): "هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف".

ثانياً: المصطلحات والأوضاع المفردة

يمكن أن نتابع هذا التأثير اللغوي النبوي في المجالات الآتية:

(١) تتضمن فكرة التحديث (Modernization)، كما يذكر فيرجسون (Ferguson)، جعل اللغة المعينة على قدم المساواة مع اللغات الرافقية بوصفها أداة للاتصال، وذلك من خلال اكتساب السمات التقنية والثقافية التي يعتقد أنها توجد في اللغات المشار إليها والتي أصبحت حديثة. وعملية التحديث: هي عملية للحاق بالجماعة العالمية من اللغات التي يزيد النقص بينها والمعتزف بها بوصفها أدوات مناسبة للأشكال الحديثة من الحوار.

(٢) حجازي، محمود فهمي: اللغة العربية في العصر الحديث؛ قضايا ومشكلات، ص ١١٧، ١١٨.

(٣) الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، بيروت: دار الكتاب العربي، (د.ت)، ص ٢٨٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٣١٥، ٣١٦.

(٥) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٣١٥.

(٦) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م): الحيوان، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ٣، (د.ت)، ٣٣٥/١، وانظر السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الجيل، (د.ط)، (د.ت)، ٣٠٢/١.

(٧) الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٣١٥.

(٨) الجاحظ: البيان والتبيين، ص ١٧/٢، ١٧.

أ. توليد مصطلحات جديدة.

ب. التوسع في دلالة ألفاظ موجودة.

ج. هجر ألفاظ موجودة (التنقية اللغوية).

أ. توليد مصطلحات جديدة:

يقول ابن فارس^(١): "... وقد كانت حدثت في صدر الإسلام أسماء، وذلك قولهم لمن أدرك الإسلام من أهل الجاهلية مخضرم". ولم يُعن اللغويون بتاريخ اللفظ، فليس بين أدينا بطاقات لغوية للألفاظ، تسجل كل مفردات اللغة في كل مراحل تطورها، مع الدلالات الخاصة بكل كلمة، وكل تركيب في ضوء النصوص المؤتقة على نحو دقيق، ويقدم صورة كاملة لألفاظ اللغة عبر القرون.

لقد كان النقل المجازي في الجاهلية، سبباً من أعظم الأسباب في نمو اللغة، غير أنه لم يُنسب من ذلك شيء إلا كلمة واحدة ذكرها الجاحظ، قال^(٢): "إن أول من سمى الأرض التي لم تحفر قط، ولم تُحرث، إذا فعل بها ذلك (مظلومة)، هو النابغة، حيث يقول:

إلا الأوازي لأباً ما أيتها والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

ومما انفرد به وتابعه عليه المسلمون، الأسماء والمصطلحات الشرعية مما لم يرد في القرآن الكريم؛ ومنه كذلك ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها، ويعجبون لانفرادها بها، وهم عرب مثله. روي أنه ﷺ قال لأبي تيممة الهجيمي: "إياك المخيلة"، فقال: يا رسول الله، نحن قوم عرب؛ فما المخيلة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "سبيل الإزار"، ومرت بعد ذلك على هذا الوضع، يُراد بها الكيز ونحوه^(٣).

ب. التوسع في دلالة ألفاظ موجودة:

اعتقد العلماء العرب، أن أفضل وسيلة لتوسيع المعجم العربي، هي عملية التوسع الدلالي في الكلمات الموجودة فعلاً، وظن العلماء العرب، أن لغة القرآن نفسه، هي التي قدّمت المثل المحتذى في هذه العملية، وهذا يرجع إلى الفكرة التي تأصلت لديهم، وهي فكرة (النقاء اللغوي)^(٤).

اقتضت العربية في العصر الجاهلي كلمات كثيرة من الثقافات المحيطة بها، ولم يكن ينظر إلى هذا الاقتراض في القرن الأول، على أنه عيب يشين نقاء العربية، بل غداً ميزة وعلامة من علامات الرفعة لإثراء اللغة، وأمرة من عبقرية اللغة المتجسدة في القرآن الكريم. غير أننا لم نصل نهاية القرن الثاني الهجري، حتى وجدنا أهل اللغة ينتقدون فكرة أن يكون القرآن حاوياً لكلمات أجنبية، ولذلك وجدناهم يردّون كل لفظة لأصل بدوي.

يقول أبو عبيدة^(٥): "نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن طه بالنبطية فقد أكبر". وعلى الرغم من أن معظم المعجميين العرب؛ كالسيوطي ظلوا يردّون بعض الكلمات

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م): الصحاح، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، (د.ط.)، (د.ت.)، ص ١٠٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ٣٣١/١.

(٣) الراعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٣١٧.

(٤) فرستغ: اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص ٨٥.

(٥) محمد بن المشي، أبو عبيدة (ت ٢١٠هـ/ ٨٢٥م): مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨١م، ص ١٧/١.

العربية لأصل أجنبي، فإن فكرة نقاء اللغة العربية من كل شائبة، ظلت الفكرة الأساسية عند بعض العلماء المسلمين^(١).

لقد أصبحت عملية التوسّع الدلالي طريقة مقبولة لاصطناع مصطلحات جديدة، وقد كان العلماء العرب على حقّ دون شكّ في أن جزءاً من المعجم الديني القرآني، قام نتيجة لتطور داخلي دون أي تأثير خارجي.

إنّ النقل اللغوي الذي ذكره ابن فارس في باب الأسباب الإسلامية، هو الذي أعطى الألفاظ العربية معنىً فنياً خاصاً، بعد أن كانت تحمل معنىً بدوياً، فهو يقول^(٢): "ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخرى، بزيادات زيدت، وشرائع شرّعت، وشرائط شرّطت....".

ج. هجر ألفاظ موجودة (التنقيح اللغوي):

يأتي العمل اللغوي المحكم والمنظم من عمر العربية، تحديثاً وتطويراً، في العهد النبوي، حيث بدأت رؤية لغوية جديدة، عمادها التوجيه المنضبط مع طبيعة الإسلام، في رويته للإنسان والكون والحياة. فقد مسّت توجيهاته الكريمة العادة والعرف والمعتقد، فأبقت على ما يوافق "فطرة الله"، وأتت على ما يخالفها. وقد كانت اللغة ميدان هذا التغيير، وكان الرسول الكريم ﷺ هو الموجّه اللغوي في تحرير اللفظ والعبارة، تقريراً، أو هجراً، أو استبدالاً، وجرى كل ذلك في ما يمسّ حياة الإنسان؛ أي في تعامله وتفاعله في المجتمع، فنالت الألفاظ من ذلك نصيباً.

لم يتجاهل ﷺ عقلية مجتمعه (المجتمع العربي)، وهذه السمة من سمات المتحرّزين في ميادين الحياة، بتوجيهاتها المختلفة، فخاطبهم بما يعرفون، لكنه، عليه السلام، استحدث عرفاً لغوياً شريعياً (على حسب اصطلاح اللغويين)، فوسّع في دلالة المفردة اللغوية، فهو - حيناً - يوقّف الصحابة (رضي الله عنهم) عليها، في مناسبات كثيرة، فكانوا يتحرّزون من التلقّظ باسم ما ألفوه؛ لأنهم اعتادوا منه - عليه السلام - هذا التوجّه، فلا يحبّون - رضي الله عنهم - أن يقدموا بين يديه، وقد عرفوا منه هذا المسلك.

إنّ التغيير اللغوي المقصود، بعد مهمة صعبة في عرف التخطيط اللغوي، والسياسة اللغوية، فهو يعتمد على ظروف متّوّعة: تاريخية واجتماعية ونفسية. وتحتاج هذه الظروف إلى موهبة وتدابير في إعادة ترتيب أوضاع اللغة، وقد تمّتع الرسول ﷺ بهذه الصفات، فجعلت منه شخصية ذات كفاءة في تعامله مع هذه الظاهرة، ذلك أنه يريد لغة عامة (عرفية)؛ لغة لا تتجاهل بينته، ولكنها ترمي إلى رؤية تجديدية في الفكر والسلوك.

إنّ القرار اللغوي الذي كان يعتمده ﷺ، لاقى قبولاً من مجتمعه، وهذا معيار أساسي في قواعد التخطيط اللغوي.

لا يخرج التوجيه النبوي عن توجيهات القرآن الكريم، فقد جاءت توجيهاته ﷺ وفقاً لما قرّره النصّ القرآني في سياسة الخلق من مؤمنين ومشركين وأهل كتاب؛ فالروية الإسلامية في أساسها تقوم على المتلقّي، فجاء الخطاب يُصوّر مواقف الإنسان المختلفة، ومشاعره المتباينة، فتعدّدت لذلك ألوان الخطاب: اقتضاباً، وتطويلاً، ومباشرة، وحواراً، وتقريراً ومساءلة.

ففي خطابه المسلمين، في أوائل سورة البقرة، أوقفهم على همزات ولمزات اليهود من أهل الكتاب، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا نَنْظُرُنَا وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة: ١٠٤).

(١) فرستيج: اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ص ٨٤.

(٢) ابن فارس: الصحابي، ص ٨٣.

فقد طلب الله — سبحانه وتعالى — من المؤمنين ترك استعمال تعبير "راعنا"، واستبدل به تعبير "انظرنا"، وذلك لما للفظ "راعنا" من دلالة توافق ما هم عليه، من رمي المصطفى ﷺ بأقبح الصفات، فقد ذكر النيسابوري^(١): "أن العرب كانوا يتكلمون بها، فلما سمعهم اليهود يقولون للنبي ﷺ، أعجبهم ذلك، وكان "راعنا" في كلام اليهود سباً قبيحاً، فقالوا: إنا كنا نسب محمدًا سرّاً، فالآن أعلنوا السب لمحمد؛ فإنه من كلامه، فكانوا يأتون نبي الله ﷺ، فيقولون: يا محمد، راعنا، ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن عباد، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه، فقالوا: ألسنم تقولونها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...﴾.

وعلى هدي هذا التوجيه القرآني: لا تقولوا: (...)، (وقولوا: ...)، جاء الهدي النبوي، تطبيقاً أميناً له، فيحمل التوجيه نفسه، في ردّ المفهوم المرغوب عنه إلى المفهوم الذي يوافق طبيعة الفكرة الإسلامية، ويمكن أن نمثل لذلك بصورة من توجيهاته ﷺ في الجدول الآتي:

لا تقل	و	قل
زرعت ^(٢)		حرثت
خبثت (نفسى) ^(٣)		أقست (نفسى)
عبدى وأمتى ^(٤)		فتاى وفتاتى
ربى وربتى ^(٥)		سيدي وسيديتى
استأثر الله بفلان ^(٦)		مات فلان، استأثر الله بعلم الغيب، واستأثر الله بكذا
لا نبي بعده ^(٧)		خاتم النبيين
الناس قد انصرفوا (يريد من الصلاة) ^(٨)		قد قضوا الصلاة، وقد فرغوا من الصلاة وقد صلوا، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم

(١) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ/١٠٧٥م): أسباب النزول، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط)، ١٩٨٠م، ص ٢٠، ٢١.

(٢) البستي، محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م): صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٩٣م، رقم الحديث (٥٧٢٣)، وانظر: الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/١٠٣٨م): الكشاف، بيروت: دار المعرفة، (د.ط)، (د.ت)، ج ٤، ص ٤١.

(٣) مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج (٢٦١هـ/٨٧٥م): صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، بيروت: مؤسسة مناهل العرفان، (د.ط)، (د.ت)، ج ١٥، ص ٧ رقم ٢٢٥٠. وانظر: الجاحظ: الحيوان، ٣٣٥/١.

(٤) المصدر السابق، م، ج ١٥، ص ٦. وانظر: الرافعي: تاريخ أدب العرب، ٢١٠/١.

(٥) المصدر السابق، م، ج ١٥، ص ٢٥٦، ٢٥٧، رقم ٢٩٢٢٠. وانظر: الرافعي: تاريخ أدب العرب، ٢١٠/١.

(٦) الجاحظ: الحيوان، ٣٣٥/١.

(٧) المصدر السابق، ٣٤١/١.

(٨) المصدر السابق، ٣٤٢/١.

إنَّ التوجيه النبويّ اللغوي، يعتمد في قوّته على تهييج المشاعر الإيمانيّة لدى الصحابة رضوان الله عليهم، باستحضار النصّ القرآني الكريم، الذي يتطابق لفظه مع اللفظ الذي اختاره النبي ﷺ، وهو (عليه السلام) يسعى من ذلك إلى توحيد الرؤية، بتوحيد الألفاظ بين لغة القرآن والحديث الشريف، قال تعالى^(١): «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ».

ففي قوله عليه السلام: "لا تقولوا: زرعنا، ردّاً إلى قوله تعالى^(٢): «أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ». وفي هذا تبين لدلالة اللفظ القرآني (زرع)، ذكر الراغب أنّ الحرت: "إلقاء البذر في الأرض، وتهيؤها للزرع"^(٣).

وقد جلّى الأمر بين مادة (حرت) و (زرع)، بقوله^(٤): الزرع: الإنبات، وحقيقة ذلك تكون بالأمور الإلهيّة دون البشريّة. قال: «أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ». فنسب الحرت إليهم، ونفى عنهم الزرع، ونسبه إلى نفسه، وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب، التي هي سبب الزرع، كما تقول: أنبت كذا، إذا كنت من أسباب نباته.

تخطيط المفردات بين القرآن والحديث الشريف:

يُعَدُّ علم الألفاظ (Lexicology)، أكبر فرع وأشمله في نظرية التخطيط اللغوي^(٥). ولا يهتم عالم اللغة حينما يتعلّق الأمر بالتوسّع في المفردات أن يكون تأثير هذه المفردات الجديدة من لغات أخرى (عن طريق الاقتراض)، أو أن تُشكّل من عناصر موجودة سابقاً في اللغة.

قدّمت لغة القرآن الكريم المثل المحتذى في عملية التوسّع الدلالي، وهي وسيلة من وسائل توسيع المعجم العربيّ في الكلمات الموجودة، فقد فسّر النحويون العرب كلمات نحو (صلاة) و (زكاة) و (إسلام) على أنّها كلمات عربيّة بدويّة، أعطاهما السياق الديني معناها الفني الخاص، حيث أصبحت عملية التوسّع الدلالي طريقة مقبولة لاصطناع مصطلحات جديدة^(٦).

التوجيه الخاص (قطاع الأسماء):

مرّت العربيّة في تاريخها الطويل بتجربة فريدة في التخطيط اللغوي تستحقّ التأمل والبحث من حيث: التطوير وتنمية المفردات وتوليدها، وبناء المصطلحات، واختيار المعيار، أو النمط اللغوي (Norm selection)، والتقييس والتحديث والتنمية. وهو تاريخ رافق العربيّة قبل الإسلام وبعده؛ فقد كان يجري قبل الإسلام على أيدي الشعراء؛ الذين يملكون المعرفة، كما يقول زويتلر، فهم وحدهم الذين يملكون لغة مشتركة يفهما المتكلّم العادي، ولكنّه لا يقدر على تعلّمها، فهي من نصيب الشاعر المحترف، والراوي المحترف كذلك بعد تدريب طويل^(٧).

وفي الإسلام تبدّأ قصّته بنزول القرآن الكريم، فعلى الرغم من أنّ النقل الشفاهي ظلّ مكوناً أساسياً من مكونات الثقافة الإسلاميّة، فقد أصبحت الفروق بين النصوص كبيرة بدرجة لا يمكن تجاهلها، وكانت الحجة لنص واحد عمدة

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٢) الأصفهاني، الراغب (ت ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دمشق: دار القلم، وبيروت: الدار الشامية، ط ١، ١٩٩٢م، ص ٢٢٦.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٦٤.

(٤) الراغب: مفردات القرآن، ص ٣٧٩.

(٥) Joshua A. Fish man, *Advances in Language Planning* p. 60.

(٦) فرستيف: اللغة العربيّة، ص ٨٠.

(٧) فرستيف: اللغة العربيّة، ص ٦٤، وانظر: استيتية، سمير شريف: المشكلات اللغوية في الوظائف والمصطلح والارواجية، العين: (د.ن)، (د.ت)، ص ٤٤، ٤٥.

ملحة، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم. وقد كان للحكومة المركزية في هذا الأمر ضلع كبير، فقد مكّنت لنص واحد أن يصبح هو أساس أي نشاط سياسي، أو ديني في عمر الأمبراطورية الجديدة^(١).

بدأ التميّز اللغوي يظهر مع آيات القرآن الأولى، فقد كانت أعلى شكل لغوي يستخدم، حيث لاحظ العرب أنفسهم تميّز هذا الشكل عن غيره، وكان لهذه الصورة اللغوية، التي تستعمل في الواقع بشكل مكثف — وهي الصورة العليا في المجتمع — منزلة خاصة ترجع أهميتها إلى الاحترام الشديد الذي يكنّه الناس لها.

يعتقد هاوجن متبعاً رأي (١٩٦٣)، أن هناك قطاعاً مهماً من المجتمع يسمى (القيادة) هم الذين يستحقون التقليد، الذين من المرجح جداً أن تنتشر استخداماتهم^(٢). ومن مقترحاته ثلاثة معايير لتخطيط اللغة، والمعيار الثالث منها يرتبط بالوضع الاجتماعي للغة، والذي يسميه القبول؛ فاللغة أو أي ضرب لغوي سواء أكان قائمة من المفردات الموافق عليها، أم أي نوع من الممارسة اللغوية الخاضعة لعملية التخطيط، يجب أن يقبلها أعضاء المجتمع الذي يخطط فيه^(٣).

يُعدّ الشكل اللغوي الذي كان يقترحه الرسول ﷺ، وهو رأس القيادة، في الدولة الإسلامية، مرجعاً ملزماً في بعض المواقف — التي تقتضي تغييراً، أو بناءً جديداً، غير أنه لا يكون في بعض المواقف الأخرى ملزماً، فلا يترتب على مخالفته، مخالفة شرعية، ولكنه ملزم أدبيّاً، رغبة في موافقة توجيهه عليه السّلام. وفي الصفحات الآتية، أتأول تأثيره، صلى الله عليه وسلم، في تخطيط المفردات، ولا سيما في قطاع الأسماء.

يكشف قطاع الأسماء في العربية، عن جوانب اجتماعية، ذات صلة بعادات الناس وتقاليدهم ومعتقداتهم وعلومهم وفنونهم، فهي مع كونها قضية لغوية في أساسها، غير أنها تنبئ عن علاقة الإنسان بالبيئة المادية، وعن طبيعة الفكر الاجتماعي. فهي تحمل معاني كثيرة، وإحاعات تراثية ودينية وقيماً جمالية، وفيها حقائق تاريخية عميقة، تعبّر عن الآباء والأجداد في تعاقب أجيالهم الكثيرة^(٤).

تمثّل الأسماء في المجتمعات اختياراً لغوياً مقصوداً، فهي تفعل لظاهرة (البدائل المتاحة) في اللغة، وهي ترتبط بسبب ما بظاهرة من ظواهر المجتمع.

ولعلّ الذي يجعل منها اختياراً مقصوداً، إلى حد ما، هو ارتباط البدائل فيها بمعايير اجتماعية ونفسية وتاريخية. وهي غير ملزمة بصورة فردية، غير أنها تصبح بعد إجرائها — وهي تقوم على المواضعة والارتجال — في البيئة اللغوية، عرفاً لغوياً اجتماعياً.

ترتبط التسمية في أي مجتمع، بما ألفه من عادات وأفكار، ولكي نفهم الاسم في دلالاته الحضارية، يجب أن نرده إلى بيئته الطبيعية، وهي المجتمع، وخاصة يجب أن نحدّد وظيفته النافعة، وهي وظيفة اجتماعية^(٥).

تمثّل الأسماء في البيئة العربية، كثيراً من عالم الحيوان، ومظاهر الطبيعة من حولهم، وهم في ذلك يصعدون عن مذاهب، يقول ابن دريد^(٦): "واعلم أن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها، فمنها ما سموه تفاولاً على أعدائهم، نحو:

(١) فريستيج، اللغة العربية، ص ٧٤.

(٢) فاسود، رالف: علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ص ٤٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٥٤، ٤٥٥.

(٤) حسين، خريوش: التسمية: ماهيتها، وفلسفتها، وخصائصها الدلالية، إريد: عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة اليرموك، ١٩٩١م، ص ١٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٦) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (٣٢١هـ/٩٣٢م): الاشتقاق، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، بيروت: دار المسيرة، ط ٢، ١٩٧٩م، ٥/١، وانظر: الأرسى، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، غني بشره وتصحيحه وضبطه محمد بهجة الأثري، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط.)، (د.ت.)، ص ١٩٣/٣.

غالب، وغلاب، وظالم، وعارم، ومُنازل، ومقاتل، ومنها ما تفاعلوا للأبناء، نحو: نائل، و وائل، وناج، ومدرک، ودرک...، ومنها سُمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم، نحو: أسد، وليث، وفرأس، وذئب، وسيد...، ومنها ما سُمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاعلاً أيضاً، نحو: طلحة، وسَمرة، وسَلْمَة، وقتادة...".

ويغلب على الأسماء عند العرب، في الجاهلية، أنهم يُسمون أبناءهم بمكروه الأسماء، كـ: كلب، وحنظلة، وضرار، وحرب، ويسمون عبيدهم بمحبوب الأسماء، كـ: فلاح، ونجاح؛ لأن أسماء أبنائهم لأعدائهم، وأسماء عبيدهم لأنفسهم^(١).

وعلى الرغم مما استنتجه العلماء من مذاهب العرب في التسمية، إلا أنه، لم تكن لديهم تقاليد لغوية ثابتة، ولا أصول مرعية، جعلنا ننسب كل اسم إليها؛ ولعل ذلك يرجع إلى تعدد الأوضاع، واختلاف البيئات مما يوسع دائرة الاختيار اللغوي في التسمية، ويحول دون الالتزام بمقاييس ثابتة، توجه العرب في اختياراتهم، على الرغم من أن الشعراء — وهم يمثلون اللغة المشتركة — كانوا يجرون توحيداً لغوياً في البيئات اللغوية المتنوعة.

إن المقارنة في قطاع الأسماء بين العصر الجاهلي، والعصر الإسلامي، تنبئ عن التحول اللغوي — شكلاً ومعنى — الذي أصابها، بل إننا يمكن أن نحدد السمات التي أصابت الخطاب في هاتين المرحلتين، وقد تجاور هذان الخطبان في البيئة اللغوية الواحدة، من ذلك^(٢): لما أراد النبي ﷺ الانصراف من أحد، قام أبو سفيان، فنأى: اغلُ هُبُلًا فقال النبي ﷺ لعمَرَ: أجبه. فقال: ما أقول له؟ قال: قل: قل: الله أعلى وأجل. فقال: لنا العزى، ولا عزى لكم! فقال النبي ﷺ لعمَرَ: قل: الله مولانا ولا مولى لكم.

صورة الخطاب الجاهلي	صورة الخطاب الإسلامي
اغلُ هُبُلًا	الله أعلى وأجل
لنا العزى، ولا عزى لكم	الله مولانا، ولا مولى لكم

إن هذا الشكل الجديد من الخطاب، الذي كان يجري على لسان رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام، يوازي تماماً الخطاب القرآني، الذي كان يتوجه به النبي ﷺ إلى قومه، وهو كما نرى ينماز عن صورة الخطاب الذي يعايشه شكلاً ومضموناً.

بل إننا نجد أنهم كانوا يستغربون عند سماع بعض الألفاظ، التي لم يألّفوها من قبل، من ذلك لفظ (الرحمن)، فقد ذكر ابن دريد، عند حديثه عن اشتقاق عبدالرحمن بن عوف، قال^(٣): "وكان اسمه في الجاهلية (عبد عوف)، فسمّاه النبي عبدالرحمن — ثم يتابع قوله: والرحمن اسم لم يعرف في الجاهلية، فلما ذكر النبي ﷺ الرحمن، قالت قریش: أتدرون من الرحمن الذي يذكره محمد؟ هو كاهن باليمامة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾"^(٤).

تعد التسمية إحدى الوسائل الجيدة، لتوليد الألفاظ، وتجديد الدلالات^(٥)، ولا سيما إذا كانت الأسماء ترتبط برواية جديدة، يحرص صاحبها على أن يؤسس لها، ويقم بناءها على نحو مقصود.

(١) ابن دريد: الجوهرة، ٤/١، وانظر: الأكرسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص ١٩٣/٣.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ٥٤٠/٢، ٥٤١.

(٣) المصدر السابق، ٥٨/١.

(٤) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٥) حسين خريوش: التسمية، ص ٦١.

إنَّ التصرُّفَ المقصود في الأسماء قضية لغوية، وهو إجراء رافق الدعوة الإسلامية، فقد كان من سنَّته ﷺ تبديل الاسم الحسن بالقبيح^(١).

وقد أئسَّ الصحابة — رضي الله عنهم — ذلك منه، بل إنَّهم كانوا يتوقَّفون عن الإجابة، عندما كان يسألهم عن أشياء معروفة لهم بأسمائها؛ لأنَّهم اعتادوا أن يسمعوها منه — عليه السلام — إجابات على غير ما ألفوا، ففي حجة الوداع سأل الصحابة^(٢): "أيُّ شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت؛ حتى ظننا أنَّه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى. قال: فأَيُّ بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت؛ حتى ظننا أنَّه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة، قلنا: بلى. قال: فأَيُّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فسكت حتى ظننا أنَّه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، يا رسول الله..."

أصابَ التوجيه النبويُّ المفردة تقريراً أو تغييراً أو استحداثاً، وقد كان هذا التوجيه فعلاً جماعياً، ولم يكن عملاً فردياً — على الرغم من أنَّه كان يجري على عين النبي، وبتوجيه منه ﷺ — لأنَّ تسويغ قبول الدلالة — بحرية — لا يخضع لقبول فرد أو حتى هيئة، بل إنَّ القبول الاجتماعي؛ أي (كفاية تداوليته) هي المعيار في الحكم على شرعية اللفظ، استعمالاً ودلالة في منظومة اللغة.

لم يجرِ للعربية تصنيف، أو جدولة للألفاظ، بحيث يتمكَّن دارسها من معرفة أصل اللفظ، وتطوُّره، والبيئة اللغوية التي كان يستعمل فيها (المجتمع اللغوي والمكان الجغرافي)؛ أي تداولية اللفظ والأسلوب والسمط اللغوي، فمجموع ما ذكر حول بعض الألفاظ لا تقدِّم صورة دقيقة عن اللفظ، وهذا الأمر يحرم دارس العربية من السجل الذي يفترض أن تأمنه اللغات لأهلها.

لم يكن من شغل اللغويين العرب القدامى، متابعة تطور اللفظة (etymology) وتقديم بطاقة شخصية، تحدد هويتها، بل كان حديثهم عاماً تختلط فيه نسبة اللفظ، مع أنَّ بعضهم حكم بنسبة بعضها، غير أنَّها نسبة مشوهة؛ فقد شغل ابن دريد بنسبة عدد كبير من الألفاظ إلى بيئاتها اللغوية^(٣)، من دون أن يحدِّد من أين جاءت؟ ومتى وكيف صيغت؟ والتقلُّبات التي مرَّت بها، والتغييرات التي أصابها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال^(٤).

وفُرت التجربة الإسلامية لدارس العربية، خدمة، بما أتاحته من توسيع لدائرة المفردة العربية، ومن استقطاب الألفاظ عن طريق الاقتراض أو التعريب، فأصبح بالإمكان تحرير اللفظ؛ أي تحديد هويته، وما صاحبها من إزاحة دلالية.

بدأ اللفظ العربي يأخذ مكاناً جديداً مع هذه التجربة التي منحته دلالة، كانت بتأثير رؤية هذا الدين للكون وللموجودات فيه. وكان الأساس في هذا القرآن الكريم، ويوازيه تماماً توجيهات الرسول ﷺ الذي كان يجري توجيهاً لغوياً نلمس أثره منه في قطاع الأسماء. وقد جرى تخطيط قطاع الأسماء على مستويين:

(١) ابن حجر، أحمد بن علي المسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، إخراج محب الدين الخطيب، مععاية محمد فؤاد عبدالباقى بأحدثه... القاهرة: دار الريان للتراث، ط ١، ١٩٨٧م، كتاب الأدب، باب لا يقل: نُحيث نفسي، رقم ٦١٧٩، ٥٧٩/١٠.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م): صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط ٣، ١٩٨٧م، رقم الحديث (٥٢٣٠)، ومسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م): صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ط.)، (د.ت.)، رقم الحديث (١٦٧٩).

(٣) انظر: ابن دريد، الجهمرة، ٤/القهارس، ص ٨٢٣-٨٢٦.

(٤) عبدالتواب، رمضان: فصول في فقه العربية، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط ٣، ١٩٨٧م، ص ٢٩٠.

الأول: المستوى النظري: وكان الإعلام له بصور مختلفة منها^(١):

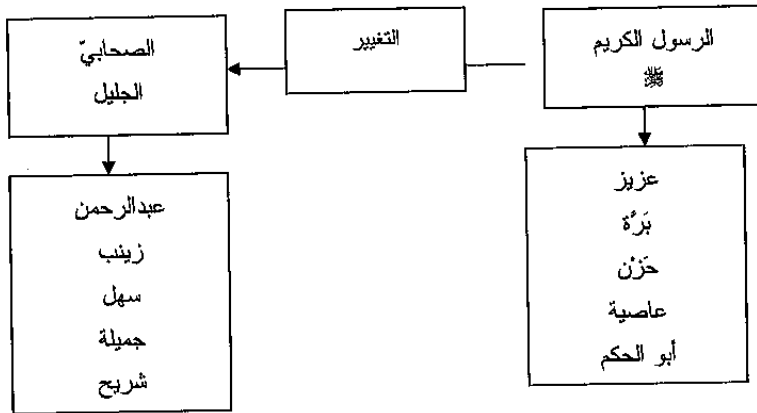
- أ. التوجيه الكريم بتغيير بعض الأسماء.
- ب. التوجيه الكريم بتسمية بعض الأشخاص ابتداءً.
- ج. التوجيه الكريم إلى بعض الأسماء دون غيرها.
- د. التوجيه الكريم إلى التفتير من بعض الأسماء.
- هـ. التوجيه الكريم إلى التشاؤم من بعض الأسماء والتفاؤل من بعض.

الثاني: المستوى العملي، وله صورتان:

الأولى: صورة فردية.

وتتمثل في التوجيه اللغوي غير الملزم، ولكنه على سبيل التخيير، فقد ذكرت كتب السنة المطهرة^(٢): "عن المسيّب عن أبيه: أن أباه جاء إلى النبي ﷺ، فقال: ما اسمك؟ قال: حزن، قال: أنت سهل، قال: لا أغير اسماً سمانيه أبي، قال ابن المسيّب: فما زالت الحزونة فينا بعد".

مخطط (١)



الثانية: صورة جماعية (حادثة، أو موقف...).

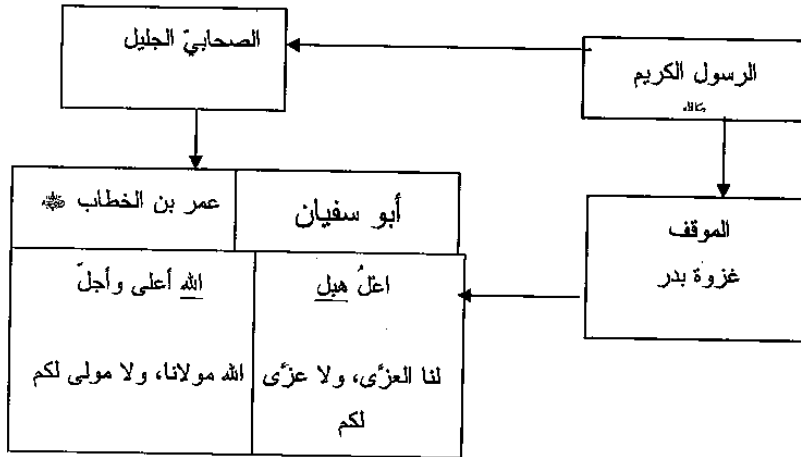
من ذلك: الحوار الذي جرى بين عمر بن الخطاب ؓ، بأمر من رسول الله ﷺ، وبين أبي سفيان، عقب غزوة بدر.

ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الآتي:

(١) انظر الصفحات الآتية: المخططات ذوات الأرقام (١، ٢، ٣).

(٢) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٥٨٩/١٠، كتاب الألب، باب اسم الحزن، رقم ٦١٩٠.

مخطط (٢)



مخطط (٣)

الاسم	الاسم بعد التغيير	المرجع
القاسم	عبدالرحمن	صحيح مسلم ^(١) ، كتاب الآداب، رقم ٢١٣٣، وانظر: سنن الترمذي ^(٢) ، كتاب الأدب، رقم ٢٨٣٤.
حزن	سهل	نسب قريش ^(٣) ، ٣٤٥/١٠، سنن أبي داود ^(٤) ، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
برّة	زينب	صحيح مسلم، كتاب الآداب، رقم ٢١٤١، ص ١٢٠، وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٣.
عاصية	جميلة	صحيح مسلم، كتاب الآداب، رقم ٢١٣٩.
برّة	جويرة	صحيح مسلم، كتاب الأدب، رقم ٢١٤٠.

أصرم	زرعة	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٤.
أبو الحكم	أبو شريح	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٥٢.

(١) مسلم، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، بيروت: مؤسسة مداول العرفان، (د.ط)، (د.ت).

(٢) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٢٧٩هـ/٨٩٢م): سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت).

(٣) الزبيرى، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب (٢٣٦هـ/٨٥٠م): نسب قريش، عنى بنشره لأول مرة وتصحيحه والتعليق عليه، إ. لفي بروفنسال، القاهرة: دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٢م.

(٤) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٧٥هـ/٨٥٠م): سنن أبي داود، مراجعة وضبط وتعليق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٥) العدد (٢) ربيع الثاني ١٤٣٠هـ / نيسان ٢٠٠٩م

حرب	سلم	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
المضطجع	المنيع	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
عقرة	خضيرة	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
بغويض	حبیب	جمهرة للنسب (١)، ص ٢٦٢.

الاسم	الاسم بعد التغيير	المرجع
شعب الضلالة	شعب الهدى	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
بنو الزينة	بنو الرشدة	جمهرة النسب، ١٨٢، وانظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
بنو مغوية	بنو رشدة	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.
عبد عمرو	عبد الرحمن	نسب قریش، ٢٦٥/٨.
عبد الجان	عبد الله	نسب قریش، ٢٧٤/٨.
بنو فهم	بنو عبدالله	جمهرة النسب، ص ٣٥٩، وانظر: الجمهرة، ١٨٠/٣.
غراب	مسلم	تحفة المودود بأحكام المولود، لابن قيم الجوزية، ص ١٠٩.
المدينة	طينية و طابية	تحفة المودود، ص ١١٠، ١١١.
عزيز	عبد الرحمن	تحفة المودود، ص ١١٠.
الصنم	سعيد	تحفة المودود، ص ١٠١.
حرب	حسن	تحفة المودود، ص ١٠٩.
حرب	حسين	تحفة المودود، ص ١٠٩.
حرب	محسن	تحفة المودود، ص ١٠٩.
العاصي	مطيع	جمهرة النسب، ص ١٠٨، وانظر: نسب قریش، ٣٨٣/١١.
الحكم	عبد الله	جمهرة النسب، ص ٤٤، وانظر: نسب قریش، ١٧٤/٥.
غافل	عافل	جمهرة النسب، ص ١٤٦.
بنو عبد العزى	بنو عبدالله	جمهرة النسب، ص ١٨٢، ٤١٤.
بنو غيان	بنو رشدان	جمهرة النسب، ص ٤١٦، وانظر: الجمهرة (١).
عبد شمس	عبد الله	نسب قریش، ٨٨/٣.
عبد الكعبة	عبد الرحمن	نسب قریش، ٢٣٥/٧.
بحير	عبد الله	نسب قریش، ٣١٧/٩.
شهاب	هشام	سنن أبي داود، كتاب الأدب، رقم ٤٩٥٦.

إنّ هذا التوجيه اللغوي منه عليه السلام في قطاع الأسماء، ينبئ عن سياسة لغوية استمدت أصولها من المجتمع اللغوي، وقد راعى فيه عليه السلام الظروف النفسية واللغوية والتاريخية، وكان مبدأ الاختيار اللغوي في هذه البيئة عنصراً فاعلاً في توجيه هذا الجانب (الأسماء)، وقد كان هذا التوجه يعتمد على شرعيته (صلى الله عليه وسلم) في هذا المجتمع، وعلى قوته المعنوية التي جعلتهم لا يترددون في كل ما يأتي، فلا يجدون حرجاً من كل ذلك، ويسلمون له تسليماً.

(١) الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (٢٠٤هـ/٨١٩م): جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط ١، ٩٨٦م.

* ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (٧١٥هـ/١٣١٥م): تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق: كمال علي الجمل، المنصورة: مكتبة الإيمان، (د.ط)، (د.ت).

(٢) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ/٩٢٣م): جمهرة اللغة، (د.ط)، بيروت: دار صادر، (د.ت).

إنَّ النظر في التجربة اللغوية العربية في مجال التخطيط اللغوي، يساعد في حل المشكلة اللغوية التي تمرّ بها العربية، فلدينا مجموعة من الأسس تشكل نظرية في التخطيط اللغوي.

إنَّ البحث في التجربة اللغوية العربية؛ تجربة التخطيط اللغوي يساعد في حل المشكلة اللغوية التي تمرّ بها العربية المعاصرة، ويتيح لنا قدرة في التعامل مع التغيّر اللغوي الذي أصاب العربية، ولا مانع من أن نستثمر تجارب الآخرين، من مثل التجربة اللغوية في العبرية، فهي تجربة أساسها الرغبة والإرادة، ومادتها توصيف وتأهيل لغويان، ودعمتها قرار سياسي ناجز.

خاتمة

رسم — عليه الصلاة والسلام — خطة لغوية لأُمَّته؛ لأنّه كان يستشرف المستقبل، أساسها التوجيه اللغوي المقصود، الذي يوافق هدي القرآن الكريم، فجاء هديه — عليه السلام — من هدي الله تعالى، وكانت تلك الضوابط، علامات قبلها الصحابة الكرام، فأخذوا بتوجيهاته، مع أنّ بعضها كان غير ملزم لهم، إلّا أنّ نفوذه — صلى الله عليه وسلم — الخلقي، وسيرته المرضيّة، جعلت من توجيهاته اللغوية، سلوكاً لغوياً اجتماعياً مرغوباً فيه، ولا شك أنّ القدرة الفذة والسلطان الخلقي الذي أسر القلوب جعل منه شخصاً مقبولاً في أقواله وأفعاله وتقريراته.

إنَّ التخطيط اللغوي يتطلب توجيهاً من ذوي الشأن؛ الذين يستوعبون الأحداث والناس، ويستبصرون بفهم ما تؤول إليه الأمور، فهم ذوو بصيرة تؤسّسها مواهب متعدّدة، هي من الإنسانيّة، ولكنها موصولة بوحى الله.

لعل هديه اللغوي — صلى الله عليه وسلم —، يبعث فينا روحاً من روحه، فيتّجه المسؤولون، من ذوي القرار، والمؤسسات ذات العلاقة، إلى صياغة رؤية وتشريع لغويين، يقومان على:

- ١- التوجيه اللغوي المقصود، الذي يأخذ بالرؤية من أولّها، ويوحّد خطواتها، من البيت إلى دور الحضانة إلى المدرسة إلى المجتمع في مؤسساته المختلفة، فهي رؤية تقود إلى خطة يحييها الطفل مع ذويه، ويحييها مع مدرّسيه، ويحييها في الشارع باللوحه المزينة بالعربية الميسّرة، ويحييها في الإذاعة المرئيّة والمسموعة، وعلمندز ينشأ الطفل وقد اعتاد عربية، مألوفة لديه، فلا يجد فجوة بين ما يسمعه ويكتبه وما يتعلّمه.
 - ٢- بناء شبكة من العلاقات المعلوماتيّة بين أجزاء الوطن العربي، تكون مهمتها متابعة كل تحويل أو تصويب أو ترجمة أو تأليف، ويكون عمادها، التوحيد اللغوي الذي ننشده في عالمنا العربي، ولم يعد هذا المطلوب بعيد المنال، بعد أن ربّط العالم بشبكة من الحواسيب التي تختصر المكان والزّمان.
 - ٣- استغلال التوجيه الديني الواعي من خلال المسجد والمدرسة والجامعة والإذاعة، والصحف؛ فهو مدخل يهيئ اللغة نجاحاً لا يقل أهمية عن غيره من المداخل التي تستثمر في هذا الشأن.
 - ٤- البحث في التجربة اللغوية العربية، واستثمار ما فيها من طاقات تخدم توجيه اللغة العربية المعاصرة، مع عدم تجاهل تجارب الأمم في هذا الشأن، فهي رافد آخر يفيد في توجيه اللغة، ويعدّل في سيرها.
- لقد كان أساس هذا التوجيه، هو رسول الله ﷺ، يقول الرافي^(١): "وأصل ذلك ما نهى عنه النبي (صلى الله عليه وسلم)، لقد كان للقرآن والحديث الشريف أثرٌ واضح في العربية من حيث المفردات والدلالة، حيث تجرّدت كثير من الألفاظ العربيّة من معانيها العامة القديمة، وأصبحت تدل على معانٍ خاصة تتصل بالعبادات والشعائر، أو شؤون السياسة والإدارة والإعراب، أو مصطلحات العلوم والفنون"^(٢).

(١) الرافي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٤م، ط٣، ٢١٠/١.

(٢) راقي، علي عبدالوحد: فقه اللغة، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، (د.ت)، ط٦، ص ١١٥، ١١٦.